الحجارة المؤلّهة

وعبادتها عند العرب الجاهليين

من آثار المرحوم الاب هنري لامنس

٣

سنحاول الآن ، بالاستناد الى كل ما تقدّم ، ان نرتقي الى اقدم المعروف عن صفة « القبة الحمراء » او القبة من أدم أحمر التي كانت تحتلّ المركز الاول في منازل القبائل الكبرى او في احياء السادة الاشراف . وذلك زمن الجاهلية . حتى اذا جاء الاسلام ، ظلّت هذه القبة على مركزها من الاهمية والرفعة في معسكرات الخلفاء والقوّاد ، ولاسيما في الاحوال الحرجة ، في تلك المآزق التي يكون فيها مستقبل الدولة او « قبة الاسلام » على قول بعض النصوص ، [1] عرضةً للخطر ، كما حصل يوم صِفّين . وقد أكد بعض الاحاديث ان النبي نفسه ، ومزاحمه مسيلمة الكذّاب ، اتخذا هذه العادة باستعمال القبة الحمراء . [2] من ذلك القبة الحمراء التي نُصبت للاجتماع بين مسيلمة وسجاح [3] . وقد كان

---

١) الاغاني ٢٠ : ١٤

٢) راجع Fâtima, p. 73 النسائي : السُنن ٢ : ٣٠٢ ؛ البخاري : الصحيح (Kremer) ٤ : ٨٩ . ويذكر ان النبي كان يحمل في سفره مضربه من الادم الاحمر ، ويرتدي الاحمر ؛ الواحدي : اسباب النزول ١٥١ ، البخاري : الصحيح (طبعة القسطنطينية) ١ : ٩٩ ؛ ابو داود : السنن (مخطوطة باريس) ١٠٤ وجه ، السيوطي : الموضوعات ١ : ٢٢٠ . وهناك امثلة اخرى : في زمن الحجّ (ابن سعد : الطبقات ٢ : ٨٨ ؛ اسد الغابة ١ : ٢٥١) . في تبوك (ابو داود : السنن (طبعة الهند ١ : ١٩٩) . في حُنين (البخاري : الصحيح (القسطنطينية) ٧ : ٥٠ ، مسلم : الصحيح ١ : ١٩١ ، ١٩٢) . في الخندق (السيرة الحلبية ٢ : ٢٥٤) .

٣) الاغاني ١٨ : ١١٦ ؛ وراجع Fâtima, p. 61 . وكان لعمر بن ابي ربيعة « قبة حمراء من أدم » يتخذها زمن الحجّ . الاغاني ١٠ : ٥٣ : وهو تقليد مأخوذ عن « الحُمس » ، ان لم يكن اضافه احد الرواة المُدّثين بالشؤون القديمة

النبي يقدر ، دون شكّ ، اهمية المظاهر الخارجية . بيد انه ، في اتخاذه القبة الحمراء كان يرمي الى اضفاء الخصائص الدينية الجاهلية باخضاعها لشخصيته ، وتحويلها عمّا كانت ترمز اليه .

وهكذا كان بشأن كلمة « الرب » التي اصبحت ، في لغة القرآن ، تعني لقباً دينياً فقط . وغدا النبي يحتجّ على استعمال « الكاهن » وما شاكل من الاسماء التي كانت تفيد ميزة ثقافية في العصر الجاهلي . حتى انه منع استعمال كلمة « الرب » في العلاقات الاجتماعية[1] . وقد دعا نفسه « الحَكَم » في العهد ، يوم استسلام المدينة ، وهو الحاكم المطلق الذي يجب ان يطيعه جميع المسلمين ، بعد ان يطيعوا الله : « اطيعوا الله واطيعوا الرسول » .

اما القبة فعاشت بعد كل هذه التطورات . وقد رأينا ان استعمالها الاول قديم يرقى الى عهد كان سيّد القبيلة يضرب خيمته الى جنب « البيت » او الحجر المؤلّه الذي كان من حقه وواجبه ان يحافظ عليه[2] . ويذكر ولهوسن[3] « الآلهة المنزلية » ويقول انها كانت في حوزة السيد . وكلها آراء عرضة للشكّ والخطأ كانت نتيجة التسرّع وعدم التدقيق في درس ولهوسن ومن سبقه من مؤلفي المسلمين لدور « القبة » الحقيقي في دين الجاهلية . ونحن لا نرى اي ذكر « للآلهة المنزلية » ، كما يفهمها ولهوسن ، الا في الاساطير المعروفة في « السيرة » و « دلائل النبوّة » وهي اخبار تكتنف صحتها بكثير من الشك . وفيها روايات عن اعمال المؤمنين الاوّلين وانتقامهم من الاصنام بتكسيرها واحراقها ، وهي من الحجر ! . حتى تُصبح هذه الغيرة على تحطيم الاصنام من الامجاد التي يتنازعها رجال الطبقات[4] .

١) مسلم : الصحيح ٢ : ٢٦١

٢) كان السادن ينام قرب الحجر المؤلّه . وفي اسد الغابة ٤ : ١٥٣ : « كنت انا في بيت العزى . » اي في القبة – المقلّة .

٣) ... Wellhausen , *Reste*, 49

٤) ابن سعد : الطبقات ٣ : ٢٤ ، ٥١ ، ٦٩ ، ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤١ ؛ ابن هشام : السيرة ٣٥٤ ، ٣٠٢ ، ٨٣٣ ؛ اسد الغابة ٣ : ٥٥ ؛ السهودي : الوفاء ١ : ١٧٨ ؛ مطهّر المقدسي ٥ : ١١٧

اما الحقيقة فهي ان الأشراف كان من حقهم، لا امتلاك « الآلهة المنزلية »، بل المحافظة على البيت او الحجر المؤله . وهم يحرسونه لا في المنزل او المضرب بل في القبة الخاصة به ، وهي قبة القبيلة . وكانت هـذه القبة تُضرب الى جانب خيمة السيّد . وهو معنى المزيّة الخاصة بالقول ضُربت عليه القُبة[1] . وفي بعض الاحايين يفتر النصّ ، بان هذه القُبة هي التقليدية المتوارثة فيُقال : « ضُربت عليه القُبة الحمراء ، وهي قُبة مضر الحمراء ، » المقدسة التي انتقلت جيلًا فجيلًا الى ممثل السيادة في المجتمع البدوي[2] . ويمكن الملاحظ ان يرى صلة دائمة بين انتقال البيت وامتلاك القُبة[3] . حتى ان الواحد لا يكون دون الآخر ، او يبقى عقيماً لا منفعة منه . اما اذا اجتمعا للرجل فانه يضمن لقب « السيد » او « الرب » خاصةً[4] . ويصبح هو وذووه، حرّاس او حفّاظ الحجر المؤله لا يدافعهم في ذلك احد ؛ وهو معنى القول السائر : « هم البيت غير مدافعين »[5] ، مقتضباً من القول : « هم ارباب البيت غير مدافعين . »[6] بهذا المعنى يمكن القول ان الآلهة، وبالتالي القُبة ، كانت في ايدي الاشراف[7] او سادة الاسر الارستوقراطية ، اي البيوتات[8] ، كما قيل في ما بعد .

ونتيجة اخرى لهذا الامر أنه ليس في القبيلة المجتمعة من اصل واحد ، الا « بيت » واحد ، او « قبة » واحدة . واذاً فمن الاغباط ان نتكلم عن « الآلهة المنزلية » او عن العبادة الفردية . فان عربيّ الجاهلية لم يعرف الا العبادة الشاملة، تلك الشعائر التي تقوم بها القبيلة بكاملها في ظروف خاصة ومظاهر قليلة كانت

---

١) قابل بما في الاغاني ١٤ : ١٠٥

٢) البكري : المعجم ٢٤ ، ١٥ ، ١٦ ؛ *Chroniken*, II, 141

٣) البكري : المعجم ٢٤ ، ٤٦٤ ، ١١ ؛ نقائض جرير والفرزدق ٦٧١

٤) راجع *Chroniken*, II, 141 وقد تُستعمل كلمة « رياسة » مرادفة لهذه الصفة .

٥) ابن دريد : الاشتقاق ١٧٢ ، ١٨٠

٦) راجع *Berceau*, I, 268

٧) يشير ولهوسن الى هذا الامر (ص ١٦) دون ان يستخرج النتائج التي لم ينتبه لها .

٨) ابن هشام : السيرة ٢٠٢ . اما بشأن « البيوتات » فراجع ابن دريد : الكتاب المذكور ٢٢٨ ؛ *Berceau*, 316 ؛ لسان العرب ٣ : ٢١٤ ، وفيه يقال : « فلان بيت قومه » .

كافية لاستنفاد جلدة التقوي . وكان اذا خاف تأثيراً سيئاً من بعض القوات اللابشرية لجأ الى التمائم ، وهي افضل وانجع في نظره من وجود تماثيل الآلهة في خبائه او داره .

ولنسأل الآن هل تذكّر « الحديث » هذا الماضي العريق المصطبغ بعض الشيء بالشرك ، عندما جعل النبي يشجب اللون الاحمر بكونه لون الشيطان المفضّل ؟ [1]

ان « البيوت » المنتقلة او الحجارة المحمولة ، والقبب - المظالّ عملت على تعزيز الطرافات الدينية[2] . وذلك ان الحجارة المؤلهة لم تكن لتُنقل الا في موكب من الكهّان والكاهنات والسَدَنة ومن إليهم من ذوي العلاقات المباشرة بالقوة الالهية . وفي ايّ زمن اقلع العرب عن اتخاذ الحجارة النقّالة ؟ لا شكّ انهم اقتربوا شيئاً فشيئاً من هذا الأمر في تطوّر متتابع حتى انه كان على تقدُّم ، قبيل الهجرة ، ولاسيما في الحجاز وما جاوره من اطراف نجد وهي المناطق التي كانت مهد الإسلام ، وبالتالي فهي التي تهمّنا وحدها في ابحاثنا هذه[3] ، كما انها كانت موضوع انتباه الأثريين الإسلاميين ومؤلفي السيرة . ولا يخفى ان وجود بعض الحجارة المؤلّهة في عكاظ يوافق ما نعرفه عن صفات الأسواق العربية من أنها كانت ايضاً اماكن للعبادة . وقد كان لعكاظ حَرَم ، على قول الاغاني[4] . وقد يكون وجود اللات والعزّى في أُحد آخر مظهر لعرض هذه « البيوت » او الحجارة المؤلّهة . فيكون ان سراة مكة ، وقد منوا بانكسار بدر فتداعت اركان جمهوريتهم ، شاؤوا هزّ الشعور القومي هزّاً عنيفاً ، فلجأوا الى احياء هذه المشاعر القديمة في مظاهرة غريبة يدفعون بها الوطنيين الى التأثّر

١) اسد الغابة ٥ : ١٢ ؛ راجع *Fütima*, 71 . واطلب في شأن قبة النبي الحمراء ، البخاري : الصحيح ١ : ١٠٧ ، ٢ : ٢٨٩ ، ٢٩٨

٢) قابل بالتعبير « قبة الاسلام » ، الشاعر عُديل في الاغاني ٢٠ : ١٤ ؛ « وقبة الكرم » الاغاني ١٤ : ١٠٥

٣) وهكذا فاتنا عمل بلاد اليمن ، وهي تختلف في ما خصّ مظاهر التطوّر الديني .

٤) الاغاني ١٠ : ٢٩

يرأى آلهة مدينتهم العريقة ، فاستعادة الثقة بها والايمان بتأثيرها ، بعد ان كاد هذا الإيمان يتمحي بما فطر عليه البدوي من عبث وعدم تقوى. بيد اننا في هذا المبحث ايضاً نرانا مضطرين الى الأخذ بنصوص منقوصة لم يبقِ منهـا الرواة الأوّلون الّا ما شاءت نزعاتهم.[1] وقد كانوا مدفوعين الى تجاهل هـذا الماضي الجاهلي ، ولاسيما في ما خصّ النظام الديني ؛ فلم يبقوا من النصوص والوثائق القديمة الّا ما وافق فكرتهم او فكرة من أثّر عليهم من ارباب السلطة . وكلّها ترمي الى تناسي « القبب الحمراء » « فخر العرب »[2] « ومجد الجاهلية » ، كما يقول الفرزدق ، وما الى ذلك من المظاهر المكية في طوافات رجب « والعتائر » الدامية ، والاختلاطات الصاخبة التي أنف منها النبي لمـا فيها من دلائل الشرك الوثنية . ويجب الّا نسهو عن مثل هذه الأمور كلّما طالعنا القرآن . وليس فيه ذكر « للبيوت » بمعنى الحجارة المؤلهة ، ولا « للقباب - المظالّ » .

۞

ظلّت الحجارة العديدة مدةً طويلة تحتلّ فناء الكعبة ، اي الساحة المحيطة بها[3] . على انها لم تبلغ ذاك العدد الكبير الذي ترقى بـه الاسطورة الى ٣٦٠ يحطّمها النبي يومَ الفتح . وكان ذاك الفناء الضيّق ، وقد حصرته المنازل المتقدّمة من كل جهة ، يكوّن « مسجد الكعبة » ومجتمع القرشيين . ويزعم القرشيون ان نظام مجتمعهم هذا ، او دستور جمهوريتهم ، يرقى الى جدّهم قُصَيّ . واليه ينسبون كل ما يأخذون به او يطبقونه عليهم من مؤسّسات وقوانين وشعائر مدنية ودينية[4] . وقـد يكون قُصَيّ ، عندما شاء ترميم الكعبة[5] ، انتخب

١) فلم يروا في قُبّة سيبة الا الملجأ . وقابل بما في قول ابن دريد : الكتاب المذكور ، ص ٢١٥

٢) الجاحظ : الحيوان ٥ : ١٤٣

٣) وهو ما يسمّى « مسجد الكعبة » ، اسد الغابة ٦ : ٥٧ . وبعض الروايات تضع الحجارة داخل الكعبة اي ضمن السور الحجري ، لأن الكعبة لم يكن لها اذ ذاك سقف ولا بلاط .

٤) قابل بما في حسّان بن ثابت : الديوان ١٧٦ : ٥

٥) ابن دريد : الاشتقاق ٩٧ . وقد يكون قُصَيّ غيّر في مساحة الفناء ، وزاد في بناء الكعبة .

عددًا من تلك الحجارة المكرّمة[1] . من ذلك اننا رأينا ، بعد الترميم ، الى جنب الحجر الاسود ، وهو اهمّ مُؤلّفات قُريش ، عددًا من « البيوت » و « الاركان » و « الحجارة » تحتلّ جوانب الكعبة . ويبذل التقليد السنّي جهودًا كثيرةً في سبيل ستر هذه المظاهر الانتقائية في الدين ، بعد ان دلّ عليها الترادف اللغوي ، كما دلّ عليها عدد الحجارة المحفوظة مكرّمةً في الإسلام الموحّد . فيحاول التقليد حصر انتباهنا في الحجر الأسود وحده . بيد ان الشعراء الجاهليين لا يهتمّون بهذه المرامي المتأخرة عن عهدهم . وهم ، ان لم يذكروا الحجر الأسود ، فلأنهم لم يسمعوا بعلاقته بالتوحيد الابراهيمي ، بل لم يتصوّروا وجود هذه العلاقة ، خلافاً لما يزعمه ابن هشام[2] . وهم ، فوق ذلك ، يذكرون ، غير الحجر الأسود ، من المعبودات في مكة . يشهد بذلك هذا البيت لحسان بن ثابت ، شاعر النبي ، في هجاء بني هُذَيل :

وما لهمُ ، اذا اعتزوا وحجّوا ، من الحَجَرين والمسعى نصيبُ[3]

والقصيدة متأخرة بضع سنوات عن زمن الهجرة ، كما يظهر من النصّ نفسه . وقد اوحى بها امر « الرجيع »[4] ، موحي سائر الاهاجي الموجهة الى بني هذيل . اما « الحجران » فقد نظنّ انهما الصفا ومروة[5] ، لولا ان القرآن سمّاهما « المشعرين »[6] ، وجرى الشاعر المدني نفسه على هذه التسمية في احدى قصائده[7] . واما « المسعى » فقد يمثّل طوافاً غير طواف الصفا ومروة .

وكانت الحجارة المصطفّة في فناء الكعبة[8] عرضة للسيول التي كثيرًا ما

١) كان النبي يكرّم خاصة الحجارة الموجودة « من نحو دور الجُمحيين » ؛ مُسلم ، الصحيح ١ : ٤٨٧

٢) السيرة ٥٥

٣) ديوان حسّان ٦٨ : ٣

٤) ابن هشام : السيرة ٦٢٨

٥) وكلتا اللفظتين تفيد معنى « الحجر »

٦) القرآن ٢ [البقرة] ١٥٢

٧) راجع ديوان حسّان ٨٨ : ٣

٨) راجع مسلم : الصحيح ٢ : ٨٦

لطختها بالوحل ، او جرّتها الى اماكن بعيدة[1] . فوجب من ثم العمل على وقايتها . واحياناً كانت مياه السيل تدخل الكعبة ، وتخلخل آساسها . فيقوم القرشيون على ترميمها دون اهتمام بحسن الهندسة احياناً[2] . وقد جرت احدى هذه الترميمات في حداثة النبي ، فأُعيد الحجر الأسود الى مكانه من جدار الكعبة[3] . على ان السيرة تتناسى مصير باقي الحجارة او « الاركان » فلا تذكر عنها شيئاً . ولا يشير « الحديث » الى عدد « الحجارة » الموجودة في بناء الكعبة[4] .

ولم يكن هذا العدد بالقليل . ولا ننسَ ان ارباب الاحاديث يجعلون منها ، امام النبي يوم الفتح ، ٣٦٠ ، وهي « الانصاب » التي تُركت في فناء الكعبة الضيّق ، على قولهم[5] . وقد استفادت المجموعات من المعنى المزدوج للفظة « رُكن » ، وهي تفيد « الحجر » و « الجهة » او « الناحية » . وهكذا غدا الحجر الاسود يُدعى « ركناً » او « الركن » على الاطلاق[6] ؛ مما يدل على ان « الركن » كان مشهوراً في مكة بمعنى الحجر المؤلّه .

---

١) ابن سعد : الطبقات ١ : ٩٣ . حصل سيل جارف على عهد المأمون ؛ الجاحظ : المحاسن ، ١٩ . وقد عرضنا الى ذكر هذه السيول المؤذية في بحثنا عن « مكة قبل الهجرة » ص ١٠٢ وما بعدها .

٢) مما اثار احتجاج النبي ، راجع جفرانية المقدسي ، ص ٧٤

٣) ابن هشام : السيرة ١٢٢ . ولا يخفى ان ابن اسحق ، وهو من موالي العباسيين ، يميل ، في هذا الخبر ، الى تأييد الدعوة العباسيّة أكثر منه الى الدقة التاريخية .

٤) وكثيراً ما نرى الاشارة الى هذه الحجارة بصيغة الجمع فيُقال : « الاركان » . وفي سُنن ابي داود ١ : ١٨٧ يُذكر « ركنا » اليمن . قابل بما في رحلة ابن جبير ٨٣ . وهناك ذكر « لحجارة » داخلة في بناء الحائط . اطلب Snouck Hurgronje, *Mekka*, I, 2. ؛ وابن هشام : السيرة ، ٣٩ . وفي طبقات ابن سعد ١ : ٦٤ : « الله ذو الاركان » في قصيدة منحولة الى عبد المطلب .

٥) راجع البلاذري : فتوح البلدان ٤٠ ؛ ابن حنبل : المسند ١ : ٣٧٧ ؛ مسلم : الصحيح ٨٦ .

٦) راجع مثلاً ابن هشام : السيرة ٧٨٩ وفيها يُسمّى : « الركن الاسود » . ابن الاثير : النهاية ٢ : ٤٧ ؛ كتب الصحيح والسنن في « كتاب الحج » ؛ ثم مسلم : الصحيح ١ : ٤٨٧ ؛ *Chroniken*, II, 138 ؛ البخاري : الصحيح ٢ : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ٩٣–٩٤

ويظهر ، في زمن الهجرة ، انه كان لاكثر الأُسر القرشية المهمّة « اركان » خاصة ، تنفرد كل واحدة بركن منها . وقد ذُكر منها « ركن بني جُمَح »[1] . على ان المفسرين حاولوا تخفيف هذا التعدُّد في معبودات القرشيين ، فزعموا ان ليس الركن هنا بمعنى « الحجر المؤلّه » بل بمعنى الجهة او الناحية من الكعبة « من نحو دور الجُمحيين »[2] . وقد نفهم من هذا كيف عملت الأُسر المكية الكبرى على اقامة انديتها او مجالسها في فناء الكعبة ، كل واحدة بقرب معبودها او حجرها المؤلّه ، دون شك . وهناك ذكر للحجر الاسود والذي بجواره[3] . على ان الذكر المستفيض في كل هذه المجموعة الحجرية في فناء الكعبة يختصّ به « الركنان اليمنيان »[4] . وقد شاءت احدى الروايات ان تحوّلها الى « ركن يمني او يماني » واحد[5] . وهناك ذكر لحجرين يُكرَّمان في الصفا ومروة[6] . ولغيرهما من الحجارة المزدوجة[7] .

ينتج مما تقدّم الميل الى تكريم الاركان مزدوجةً . وهذه الفكرة في الازدواج هي التي اثرت في الطوافات المكية من « عُمرة » و« دَوَار » و« سعي » . ولم تختصّ مكة بهذا الازدواج . وقد رأينا مظاهره في غير مكان من البلاد العربية[8] : في معركة أُحد مثلاً . وفي بيئة القطعة الخزفية التي درسها الاستاذ كومون . ومن السهل ان نعدّد الامثلة والشواهد على هذا الازدواج في عبادة الجاهليين ، وعلى ميلهم الى ذكر الحجارة او المعابد مزدوجة . وهذا حسان يتم

١) البغوي : مصابيح السُنّة ١ : ١٢٥ ؛ النسائي : السُنن ٢ : ٣٩ ؛ مسلم : الصحيح ١ : ٤٨٧

٢) مسلم : الصحيح ١ : ٤٨٧ ؛ النسائي : المكان المذكور .

٣) مسلم : في المكان المذكور .

٤) او « الركنان » فقط ؛ البغوي ١ : ١٢٣ ؛ ابن هشام : السيرة ١٢٤ ؛ مسلم ١ : ٤٨٦ ، ٤٨٧ ؛ ابو داود : السُنن ١ : ١٨٧ ؛ النسائي : السُنن ٢ : ٣٤ ، ٣٩ ؛ الدارمي : السُنن (مخطوطة مكتبة القاهرة) ٢٦٣ . وفي صحيح مسلم ١ : ٤٨٧ : « الركن الاسود وركن بني جُمح » .

٥) مسلم ١ : ٤٨٧

٦) الطبري : التفسير ٢ : ٢٨

٧) الدارمي : المخطوطة المذكورة ٢٦٣ ؛ النسائي ٢ : ٣٤ ، ٣٩ ؛ ابن هشام : السيرة ٢٢٨

٨) ديوان حسّان بن ثابت ٦٨ : ٢

ثابت يُسمّي مُطعم المكّي « رب المشعرين »[1] ، وقد ذكرنا له بيتاً يشير فيه الى « الحجرين » . وهذا شاعر مدنيّ آخر ، قد يكون تأثّر به حسّان ، وهو ابن الحُداديّة ، يذكر « سعاية بين المشعرين »[2] . ولنُشر الى الازدواج المعروف في الصفا والمروه ، وفي عَرَفَة والمُزدَلِفَة ، وأخيرًا في « القَرْنَين » ، حَجَرَي الحيرة المكرّمين ، المصطبغين بالدم كما يدلّ اسمها . وقد يكون هـذا الازدواج القديم أثّر في تصميم التعبير الاسلامي « المَسْجِدَين » الدالّ على مكة والمدينة[3] .

وكان من عادة الجاهليين ، في الأيمان المعظّمة او في الاتفاقات المشهورة ، ان يقسموا بماء زَمْزَم « أركان البيت » ثم يوزّعون ماء الغسيل على ارباب العقد فيشربونه[4] . رأينا ان الازدواج غالب في ذكر الحجارة . على ان كثرتها وتنوّعها يجيز الجمع في لفظة « الأركان » . ولنُشر الى النصّ الذي يذكر فيه « ركنان » مجاوران للحجَر الأسود[5] . الّا ان يكون المعنى ركنان مجاوران لِحِجْر[6] . وكلتا القراءتين ممكنة . ومهما يكن من موقع هذه الحجارة فـان جميعها جديرة بالتكريم تكريم الحجر الأسود نفسه . واذًا فلا غرابة ان يكون معاوية وابن الزُّبَير يكرّمان جميع « الأركان » الداخلة في حيطـان الكعبة دون تمييز[7] . وهي عادة لا شكّ في تأثّرها بالعادة الجاهلية[8] ، شارحةً

١) ديوان حسان بن ثابت ٨٨ : ٢

٢) الاغاني ١٣ : ٦ ؛ ٣ : ٩٩

٣) قابل بما في القرآن ٥٥ : ١٦–١٧ وفيه ان الله ربّ « المغربين والمشرقين »

٤) الاغاني ١٦ : ٦٦

٥) أهو حَجَر ام حِجْر ؟ راجع مسلم . الصحيح ٢ : ٥١ ؛ النسائي : السُنن ٢ : ٢٤ . ويذكر البَنّوني في « الرحلة الحجازيـة » ص ١٠٥ ، حجرًا في الركن اليماني اسمه « الحجر الأسعد » .

٦) البخاري : الصحيح ٢ : ١٥٦ . ويظهر ان النبي والصحابـة كانوا يكرّمون جميعهم هذين الركنين ، أسد الغابة ٣ : ٢٤

٧) البخاري : الصحيح ٢ : ١٦٢ ؛ ابن حنبل : المسند ٤ : ٩٤–٩٥ ، ٩٨ . ولا يخفى ان معاوية وابن الزبير يمثّلان ، في نظر ارباب الحديث ، ترعتين متماكسين

٨) راجع الجَدَل في ذلك في ابن الأثير : النهاية ٤ : ١٦٣ . وقد ينتج من ذلك ان النبي لم يكرّم الا « الركن الغربي »

كيف اصبح « المسجد الحرام » ، وقد احتلّ وسطه « بيت الله » ، المعبد الوطني الجامع آلهة قريش وقبائل تهامة[١] .

والحَطيم الواسع الذكر في الأيمان الشعرية ؟ ان الرسوم المتراكمة بالشروح المختلفة لا تكشف من ان تسمح لنا بتحديد طبيعة « الحطيم » واصله[٢] . هل هو حائط الكعبة المجاور للحِجْر[٣] ؟ ام هو مرادف حِجْر؟ وهكذا نرى النبي يقوم في الحطيم[٤] بالشعائر التي تُقام عادة في دائرة الحِجْر[٥] . هو شرح لا خطر فيه أقرّه ارباب الحديث ، واخذ به ولهوسن من بعدهم[٦] . وقد أيد رأيه بالتعبير « حطيم البيت » . قلنا: وهي طريقة لم يكن لينكرها ابن دريد وابن سيده وامثالها من هواة « الإشتقاق » والتخريج .

اما نحن فلكي نتمكن من اقرار نتيجة كهذه يجب ان يثبت لنا ان الحِجْر كان منذ القديم قسماً من الكعبة . من الحق ان احد الاحاديث يقول بهذا . ولكن اي قيمة تاريخية له ؟ ثم ان ولهوسن يذكرنا برأي معاصري النبي ان الحطيم اسم شيطان او صنم[٧] . واذاً فكيف نوفق بين معادلة الحطيم

١) كبني خزاعة وغيرهم من القبائل المجاورة الذين كانوا في مكة قبل القرشيين ، وتركوا فيها آلهتهم .

٢) اما في يومنا فالحطيم والحِجْر واحد . راجع L. Roches, *Dix ans à travers l'Islam*, 297-298 ؛ اطلب ، في رحلة ابن جبير ، المقاطع المذكورة في الفهرست وزد عليها ص ١٠٣ ، ١٨٠ ، وفيها ان الحطيم هو النبة التي يقف فيها ائمة المذاهب السنية الاربعة . وكذلك في رحلة ابن بطوطة ١ : ٢٧٤، ٢٩٢ ، الذي كثيراً ما نقل عن ابن جبير ، راجع في ذلك الانتقادات المنشورة في *Journal Asiat.*, 1918, p. 474

٣) ابن هشام : السيرة ١٢٤ . قابل بالرأي المنسوب الى ابن عبّاس : الحطيم الجَدْر يعني جدر الكعبة . ياقوت ٢ : ٢٩٠ . اما الجَدْر فمناه الحِجْر . البخاري : الصحيح ٢ : ١٥٦ ؛ ابن الأثير : النهاية ١ : ١٤٨ ، ١٥٠ .

٤) ابن دُرَيد : تصير الاصول ٣ : ٢٢٤

٥) ابن هشام : السيرة ٧١، ٩١، ٩٣، ٢٦٤ ؛ ابن حنبل : المسند ٤ : ٣١ ؛ الطبري : تاريخه ١ : ١١٥٧ ؛ البلاذري : انساب الأشراف ١٦٢ وجه ؛ مسلم : الصحيح ١ : ٨٢

٦) Wellhausen, *Reste*, 74 ؛ ابن الأثير : النهاية ١ : ٢٢٧

٧) *Reste*, 74, n. 1 وفي ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٢٩٠ ان الحطيم « ما بين الركن الاسود الى الباب الى المقام حيث يتحطّم الناس للدعاء . وقال ابن دريد : كانت الجاهلية

للحجر[١] ، وهذا الرأي الاخير ،[٢] واقوال الشعراء وتلميحاتهم[٣] . فان اقوالهم الغامضة ، التي زادهـا التباساً واضطراباً عمل الرواة والشرّاح ، تضع « ركن الحطيم »[٤] الى جنب « رب مكة » فيكون الحطيم « ركناً »[٥] اي حَجَرًا . ولا يخفى ان الكلمتين مترادفتان في مكة . وهل تخطّى ، بعد هذا ، اذا اعتبرنا وجود حجر مؤلّه او معبود لم يُذكر في لائحة « الحجارة » ، اسمه الحطيم ؟

وكان ينافس سائر « اركان » الكعبة في احترام الشعب فيكرّمه الحجّاج تكريمهم « ربّ البيت العتيق ».[٦] ومن اضطراب الشرّاح انّ بعضهم لجأوا الى

تتحالف هنـاك يتحطّمون بالأيمان . وكل من دعا على ظالم وحالف اثمًا عجّلت عقوبته . » (كذا !) وفي اشتقاق آخر ، في الموضع نفسه : « سُمّي حطيماً لان البيت رُبّع وتُرك محطوماً . »

١) راجع جغرافية المقدسي ٧٣، ٧٥ وفيها انه الحِجْر اي الناحية « مما يلي الميزاب . » اطلب ياقوت : الموضع المذكور ؛ ابا تمام : الحماسة ٧١٠ ؛ لسان العرب والتـاج في مادة حطم . على ان هذا « الميزاب » لا يرقى الّا لسنوات قليلة قبل الهجرة ، لأن الكعبة في الأصل « لا سقف عليها » . وقد اورد اللسان عن ابن سيده انه سُمّي الحطيم لانهم « كانوا يحلفون عنده فيحطم الكاذب » وزاد على هذا الشرح انه « ضعيف » . اما الهمداني في « جزيرة العرب » (ص ٢٧٢) فانه يميّز بين الحجر والحطيم . وهناك غير ما تقدّم من شروح واشتقاقات في لسان العرب ٨ : ٣٩ — ٤٠ ؛ وتاج العروس ٨ : ٢٥١ ؛ وقـد لخّص Lane, *Lexicon* نحو اثني عشر منها .

٢) اضف اليه الرأيين التاليين : ١ً الحطيم ما بين المقام او الباب . ٢ً الحطيم مـا بين الركن والمقام وزمزم والحِجر ؛ ياقوت : ك . م . ٢ : ٢٩٠-٢٩١ ، ٤ : ٦٢٩ ؛ ابن بطوطة : رحلته ١ : ٢١٦ يجعل الحطيم ومقام ابراهيم واحدًا

٣) ابن ملجم يحلف قرب الحطيم بانه يقتـل عليًا ، الطبري : تاريخه ١ : ٣٤٦٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ٣ : ٢٢٩ ؛ ولا يمكن استنتاج شيء في تحـديد الحطيم من قول ابي داود : السُنن ١ : ١٨٩

٤) وقد ورد في بيت للحزين ، في حماسة ابي تمام ، ٧١٠ . واذًا فلا يمكن جعل الحِجْر نفسه ، وليس الحِجْرُ بركن . اما بشأن نسبة البيت فراجع الاغاني ١٤ : ٧٨ ، ٧٩ . ولا ينفي ذلك المعادلة بين الحطيم والحجر الاسود . وليس لنا نتيجة من قول الاغاني ١٣ : ٤٠

٥) في بيت منسوب للفرزدق ، الاغاني ١٩ : ٤١ ؛ وفيه ان الحطيم يُقبَّل وهو عمل لا يصح بالنسبة الى الحِجر .

٦) الاغاني ١ : ١١١ ، ٥ : ١٥٢ ، ١٤ : ٧١

التوحيد بين الحطيم والكعبة . وقد يكون من أثر هـذا الجمع ذاك الحديث الذي عدّه السيوطي بين « الموضوعات» والذي ينسب الى النبي قوله ان درهم الربا افظع من ستة وثلاثين زنىً في الحطيم.[1] على ان هذه المحاولة في التوحيد بين الحطيم والكعبة تصطدم بوجود التعابير القديمة من مثل « حطيم البيت » و« حطيم الكعبة . » وكلها تفيد علاقة لا معادلة بين الأثرين . وهذا التعبير الاخير وارد في بيت شعر قديم يذكر الحطيم موضعاً للأيمان[2] . وسرع ما يتحقق المطالع تجاه هذه الشروح والتفاسير المتعدّدة اضطراب الرواة والمحدّثين واجتهادهم في تغطية ما قد يُشتمّ منه رائحة الشرك .

وقد رأينا الكثير من هـذه الحجارة المحفوظة في جوانب الكعبة تتشعّ حتى يومنا بمظاهر التكريم كما يتمتع بها الحجر الأسود . اما شكل الكعبة القديم بجدرانها الملساء ، الخالية من السقف ، المفتوحة لاستقبال الحجارة المؤلّهة ، فانه يرقى ، على الارجح الى عهد الترميم الذي قام به قُصيّ . وفي ذاك العهد أُحدِثت مُنشآت مختلفة بجوار الكعبة ، كدار الندوة[3] . فغدت الكعبة مع فِنائها الدائر بها المستعمل للطواف الديني ، تكوّن المسجد الارستوقراطي ، او المعبد الخاصّ بابناء قُصيّ الذين كانوا يتناوبون عليه ويقومون بخدمته وحراسته[4] . اما ما سوى ذلك من تاريخ تطوّرات هذا البناء في العهد الجاهلي فـلا نعرف عنها شيئاً . وليس في مرويّات الأزرقي واساطيره التي جمعها في القرن الثالث للهجرة ما يفيدنا شيئاً في هذا النقص . واذًا فترانا مضطرين الى ترك البحث عن اصل « الحِجْر » الغريب[5] ، وغايته ، وعن ذاك الجدار القليل الارتفاع المستدير

١) السيوطي : الموضوعات ٣ : ٨٣ ٢) ابن هشام : السيرة ٥٥٦

٣) ابن دريد : الكتاب المذكور ٩٧ . اما النابة الحقيقية من هذه الدار فلا نعرفها تماماً راجع *La Mecque* 62, 74, 101

٤) كان ناديهم على فناء الكعبة . قابل بما في القصيدتين ١٧٣ و١٧٤ من ديوان حسان ان كانتا صحيحتي النسبة . ولا يخفى اثر الدولة العبّاسية في تكييف قصائد الشاعر المدني على رغباتها .

٥) وفي بعض النصوص يُحرّم على المصلّي ان يتجه نحو الحجر في صلاته . راجع جغرافية المقدسي ص ٧٣

من الكعبة ، وعن حقيقة القرار المتخذ بشأن « مقام ابراهيم »[1] ولماذا تُرك الحجر في مكانه قرب هذا المعبد خلافاً لما قُرّر بشأن سائر الحجارة او « الاركان » التي أُدخلت في الكعبة . وقد كان من نتائج هذا الادخال ان الاركان المذكورة جُمّدت في مراكزها فلم يعد من المستطاع نقلها في اثناء العُمرة ، اشهر الطوافات السنوية في مكة[2] . وبهذا فقدت تلك المظاهرات كثيراً من اهميتها القديمة . وقد تقدم لنا ان النبي شهد احد هذه الطوافات في حداثته ، فآلمه ما تحقق فيه من مظاهر الصخب الهمجي والشرك الصارخ . والى هذا قد تشير الآية التي تقضي على القائمين بتلك المظاهر الفاسدة بالعذاب الابدي فتقول : « ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون »[3] . ويقول الحديث ان جميع طوافات العُمرة التي قام بها النبي كانت في غير رجب[4] ، وهو الشهر الذي كان يقع فيه عيد مكة في الجاهلية . وفي هذا دليل جديد على محاولات النبي في محو المظاهر الوثنية في عبادة المكيين .

٤

قيل ان تلاشت معالم « البيوت » النقّالة ، اخذت تتلاشى صفات الاشخاص الجامعين بين خصائص الكهانة والسيادة ، الحاملين بفضل هذا الازدواج في المهنة لقب « الربّ » الفخم[5] . وقد عرضنا مرّة ، الى هذا التعبير في درسنا الالقاب التي كان يحملها ارباب السلطة في الصحراء[6] . فيلزمنا الآن ان ندقق ، قدر

١) راجع المقدسي ، ٧٢–٧٣ ؛ Snouck Hurgronje, *Mekka*, I, 11

٢) بصرف النظر عن سائر « المراكب » الدينية ، وكانت في كثرتها كثيراً ما تستدعي تحكّم البدو الشاكين ابداً . اطلب الاغاني ١ : ٢٠

٣) القرآن ٨ [الأنفال] ٣٥

٤) ابن سعد : الطبقات ٢ : ١٢٣

٥) الاغاني ٨ : ٦٨ ، ٧٠ : ١٠ : ١٥ ؛ ابن قتيبة : المعارف (الطبعة المصرية) ١٩٨ ؛ الجاحظ : الحيوان ١ : ١٦٠ (وفيه امثلة عديدة) . ويُدعى المتحدّرون من سلالة الكاهن شقّ « ارباب بَجيلة » . الاغاني ١٩ : ٥٢

٦) اطلب . . . *Bercean*, I, 203 ؛ في تفسير الطبري ١ : ٤٦ « الرب » يعادل « السيد المُطاع . »

المستطاع ، في قيمة هذا اللقب الذي يظهر نافرًا في تلك البيئة ، لما نعرفه من تقيّد البدو بمظاهر المساواة الديموقراطية . واذًا فلا شكّ في ان الاهتمام الديني وحده كان بامكانه ان يفرض على البدو الديموقراطيين قبول هـذا الامتياز الاجتماعي. وهذا نولدكه يميل الى الشك بصحة القول ان الجاهليين كانوا ينادون احد كهنتهم العظماء « يا ربّنا ! »[1] ومهما يكن من اسباب شكه ، فان حكمه بان القول المذكور « صورة إسلامية تمثل جهل المشركين الأعمى »[2] يزاه على شيء من البساطة . فان فيه اهمالًا للاستفادة من بعض « بقايا الجاهلية » على لغة ولهوسن . من الحقّ ان كثيرًا من المرويّات عن ذاك العصر ، التي تضخّم مجموعات الاغاني[3] ، يكتنفها الشك . وقد يكون منها هذا الخبر . ولكن من الحقّ كذلك ان الرواة والقصّاصين ، في انشائهم لها ، استفادوا من بقايا وذكريات شعرية وتاريخية لا يمكننا الاستفادة منها اليوم . ولهذا لا نرى من الحكمة ان نطرح جانباً كل ما جاءنا من المرويّات القديمة ، قبل ان ندرسها ونحلّلها واحدة واحدة علّنا نستفيد تقدّماً في درس الضمير الديني في مجتمع ابناء اسماعيل .

ذكرنا في كتابنا « مهد الإسلام »[4] ، في الكلام عن اعمال « الكهنة القدماء » ، انه كثيرًا ، ما كان يعرض لهؤلاء القائمين بخدمة الآلهة ، في اثناء استعمالهم وظيفتهم ، ان تتضاءل في شخصيتهم اهمية دورهم ، فيخالوا انفسهم مكان تلك الآلهة المخدومة واذا بهم يستعملون طريقة الانشاء الخاصة بها . » من هذا القبيل ذاك الخبر المرويّ عن كاهن بني أسد ، عوف بن ربيعة ، الذي اجاب دعاء قومه : « يا ربّنا ! » بقوله : « يا عبادي . »[5] هذا الخبر الذي يوقع

---

١) قابل بالقول عن احد القرشيين من مخزوم : « ربّكم » ؛ ابن دريد : الكتاب المذكور ، ٦٣

٢) في *Der Islam*, V, 211 في نقده كتابنا *Berceau de l'Islam*

٣) وهي في اكثرها تعمل على شرح المقطوعات الشعرية فتستخدم معلومات تاريخية وجغرافية قد تكون موضوعة بعد الوقوف على المقطوعة الشعرية المنوي شرحها. ولا يخفى ان كل شارح يؤوّل فيها ويبدّل على ما يوافق هواه ونزعته.

٤) *Berceau*, I, 204 ٥) الاغاني ٨ : ٦٦

نولدكه في الاستغراب ، لا نراه بعيداً ان يكون مستنتجاً من بيت لحسّان بن ثابت . في ديوان حسّان ، قصيدة يرثي بها الشاعرُ المدني سيّداً من قريش اسمه مطعم بن عديّ . فيسمّيه « سيّد الناس » « وربّ المشعرين » وبعد اعطائه هذا اللقب الفخم ، هل يتردّد الشاعر الانصاري في القول ان المكيّين اصبحوا « عباد » مطعم ما قاموا بشعائر حجّهم !

كل هذه الملحوظات تدفعنا الى اعادة ما قلناه[1] من ان لقب « الربّ » مختصر من « ربّ البيت » ، او « ربّ القبة » ، وهو لقب عالٍ يضع صاحبه فوق سائر « السادة » فيرفعه الى مقام اكليريكي او ديني ، اذا صحّ التعبير . على ان اللقب المختصر اي « الربّ » ، لم يمنع استعمال التعبير الكامل : « رب القبة »[2] ، او « رب القبة الحمراء »[3] . وقد مرّ امام عيني القارئ كثير من هذه الأمثلة[4] . نرى هؤلاء الاشخاص ، المرتفعين عن جمهرة زملائهم في السيادة ، يخلفون « الكهنة » الذين اشارت اليهم الرُقُم النبطية[5] ، والذين كانوا

---

١) *Berreau*, I, 204

٢) او « أهل القباب » كما ذكرنا . وقد يُطبَّق هذا اللقب على الامير اللخمي ، ملك الحيرة ، كما نرى في قصائد النابغة الذبياني وحسّان بن ثابت ، حتى بعد اهتداء اللخميين الى النصرانية . فهل يكون المعنى الاصلي للتعبير دخل منذ ذاك ، في حيّز النسيان ؟

٣) او « ربّ المشعرين » كما في قول حسّان .

٤) وهذا مثل اثوي . فقد ذُكر في سُنن ابي داود ١ : ١٩٥ ؛ والاغاني ٢١ : ٦٠ ؛ واسد الغابة ٥ : ١٧ : « ربة بيت في الجاهلية » . ولا يظن القارئ ان المقصود بهذا التعبير « سيدة بيت » او « مديرة اسرة » فان هذه الصفة لا مبرّر للاشارة اليها في المجتمع الجاهلي . ان المقصود كاهنة متعلّقة بخدمة بيت او حجر مؤلّه .

٥) Jaussen - Savignac, *Mission archéologique en Arabie*, I, 213, 217, n°s 57, 58, 59. ويستغرب المؤلفان العالمان عدم وجود أثر لأيّ بناء ديني في جوار هذه الرُقُم وهو استغراب لا مبرّر له ، اذا انتبهنا لما استخلصناه من نتائج عن صفة « البيت » العربي الذي لا يفرض وجود الهيكل او المعبد بمعنى البناء الخاصّ . قابل ملاحظتنا (ص ٢١٥) بقول E. Littmann, *Zu den nabat. Inschriften von Petra*, dans *Zeitschr. für Assyr.* 1914, 17, 268-269 اما اصل هذا الالتباس والوهم ، فإقبال العلماء من فرنسويين والمان ، على ترجمة « بيت » بمعنى المنزل العصري *Maison* او *Haus*

يقومون بحفظ المظلّة المقدّسة او البيت او قبة القبيلة.[1] وفي الجزء الاول من مهد الإسلام ذكرنا اسماء عدد منهم ينتسبون الى اشهر الأسر العربية[2]. ونضيف اليهم الآن هشام بن المُغيرة المخزومي المشهور بكرمه حتى قيل « كان سيدًا مطعامًا » وعندما توفي اخذ المنادي يحترق شوارع مكة صائحًا : « اشهدوا جنازة ربّكم ».[3]

ولا يخفى ان تراجم هؤلاء الاشخاص الذين تقاسمت حياتهم الاسطورة ، قبلغت ببعضهم الى اعمار كثيرًا ما تجاوزت المائة بل المئات[4] فعُدّوا بين المعمّرين ، تفيدنا الكثير من التذكارات والتلميحات الراقية الى آثار المؤسّسات في الجاهلية الاولى .

بيد انه يجب ان لا نخلط بينهم وبين امراء الغساسنة وملوك الحيرة . كما قد يقود اليه لقب « الرب » المشترك ، « كربّ الشام » الدالّ على الأمير الغسّاني . و« ربّ الخورنق »[5] المشير الى ملك الحيرة . كذلك يجب ان نفصل بينهم وبين بعض امراء البادية من الذين كان من حظّهم ان تسنوا ، لمدة قصيرة ، « بربّ الحجاز » ، « وربّ تميم »[6]. وكلها القاب ضخمة نقلها شعراء البلاط ، في ما بعد ، الى الخلفاء.[7] . ولم يرضَ عنها التقليد السنّي فاشار الى ان النبي حرّمها

---

١) كان زهير بن جناب المشهور ينام « في قبة له من أدم » ، الاغاني ٩ : ١٧٦ ؛ ٢١ : ٦٠ ؛ *Berceau*, I, 320

٢) *Berceau*, I, 204-205 ؛ الاغاني ٢١ : ٦٠

٣) ابن دريد : الكتاب المذكور ، ٦٢

٤) من مثل زهير ، وشِقّ ، وسطيح . . . ، اطلب ابن دريد : الاشتقاق ٢٦٢ ، ٢٠٣ . والمجلّد الذي خصّه السجستاني « بالمعمّرين » ونشره Goldziher

٥) الاغاني ١٤ : ٧ ، ١٥ ؛ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١١٣ ، ٢٢٩

٦) ابن دريد : الاشتقاق ، ٢٣٠ ؛ الاخطل الديوان (طبعة صالحاني) ٣٠٥ . وهناك تبير « رب العزّى » يميل ولهوسن الى نسبته الى الله (*Reste*, 35, 220) أوَ لا يكون من الاصحّ ان نُتمّ التعبير فنقول : « رب بيت العُزّى » ؟

٧) كرب مَعْدٍ وما شاكل . . . الاغاني ١٨ : ١٥١ ؛ الجاحظ : الحيوان ١ : ١٦٠

بالنسبة الى البشر »[1] ذاكرًا ان القرآن يجعل منها لقبًا الهيًا »[2] شاجبًا عمل « اهل الكتاب » في تلقيب افراد اكليروسهم « بالارباب » و« الربانة »[3]. ولا يخفى ان الإسلام يخلو من نظام اكليريكي . واذا اضفنا الى هذا تذكارات الشرك الجاهلية العالقة بهذا اللقب ، فهنا موقف الحديث والتقليد من لقب « الربّ » موقف الحذر والإعراض . وسنرى كيف ان الشروح اللغوية تفيدنا عن قيمة هذه التذكارات القديمة في مركز « ربّ القبة » او « رب البيت » في البيئة الجاهلية .

❧

في اقوال النسّابة ، اذا ما ترجموا للأسر الشهيرة والشخصيات الرفيعة المرونة في تاريخ البادية ، كثيرًا ما نرى قولهم : « هم البيت » او« هو بيت قومه.»[4] واحيانًا تأتي هذه الجملة على صورة اخرى قد تكون اقرب الى الاصل وهي قولهم : « فيهم البيت » او « اليهم البيت »[5] فما هو هذا « البيت » أساس الشرف والعظمة في المجتمع العربي الارستوقراطي ؟ ولسنا اول من يلقي هذا

١) البخاري : الصحيح ٢ : ١٢٥ ؛ مسلم : الصحيح ٢ : ١٩٧ وفيه « ربّ الناس » عن احد السادة العاديين . شراء النصرانية ٤٧٦ ، ويجب ، فيما ارى ، ان نقرأ « ربُّ » بالرفع ، بدل « ربَّ » بالنصب . وقابل بالقول « سيّد » الناس في بيت حسّان عن احد القرشيين . على ان هذا اللقب يُصبح الهيًا في كلام صخر اخي الخنساء ، الاغاني ١٣ : ١٤٥ ؛ ان لم يكن هناك تحريف متأخّر العهد .

٢) اطلب فهارس القرآن في مادة « ربّ » . وينقل ابن هشام (السيرة ٣٥١) بيتًا لحسّان بن ثابت (الديوان ١٣٨ : ٢) فيستبدل بكلمة « ربّ » كلمة لا تأثير لها.

٣) القرآن ٣ [آل عمران] ٥٧ ؛ ٩ [التوبة] ١– ؛ ولاسيما بعد كفاح النبي ضدّ يهود المدينة ، راجع بحثنا *Les Juifs à la Mecque à la veille de l'hégire*

٤) ابن دريد : الكتاب المذكور ، ١٠٧ ، ١٢٠ ، ١٤٣ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ؛ لسان العرب ٢ : ٢١٦

٥) ابن دريد : ك. م. ١٠٧ ، ١٢٠ ، ١٤٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٣٠٥ ؛ *Mo'âwia*, 50 ؛ نقائض جرير والفرزدق ، ٥٨٧ ؛ الاغاني ٣ : ٣٠ ، ١٢ : ١٢٦ ؛ الطبري : تاريخه ١ : ١٠٣٨ وفيه : « البيت يومئذٍ من وبرة في آل ذي الجدّين.» قابل بما في البكري : المعجم ٣٩ ، ٢٠ ولاسيما القول : « فلان . . . هو بيت . . . (كذا) » ؛ ابن دريد : ك. م. ١٠٧ ، ١٢٠ ؛ لسان العرب ٢ : ٢١٦

السؤال. ذلك ان مَهَرة النسّابة وحذّاق اللغويين اهتموا قبلنا بحلّ هذا المشكل اذ اعترضتهم صفات مثل هذه عن بعض الأُسر : هم بيت سُلَيم ، او بيت غَطَفان ، او بيت هوازن ، او بيت ضبّة ، او بيت قيس . . .[1] فاخذهم الهمّ بشرحها وتأويلها . وهو همّ علمي يشكر عليه اولئك الاساتذة القدماء ، لولا ما كان من تسرّعهم في الاجوبة واندفاعهم الى تعديد المترادفات للتعبير المذكور ،[2] دون ان يتبهوا المطالع لما كان في الاصل ولما زادوه من عنديّاتهم . ولا تخفى هذه الإصلاحات المتأخرة ، ولا هذه المترادفات المُتّحمة ، على ذوي البصيرة من ارباب النقد اذا ما قابلوا بين الاصول القديمة في آثار الشعراء او المؤرّخين الأوّل ، وما ولّده تسرّع الشرّاح والرواة ، وتكثّر مؤلّفي كتب التراجم وجمّاع المعاجم التاريخية.[3] حتى ان البيت اصبح ، في نظر متأخري المؤلّفين[4] ، لا يختلف عن الأسرة او القبيلة التي تؤلّف البيت الاشهر اي المنزل الشرفي[5] . ولذا اخذوا يسرعون فيستبدلون بالبيت مترادفات عديدة « كالرياسة والحكومة» او « العدد والشرف » او « الشرف والرياسة »[6] او « الفرسان والعدد ».[7] بل اننا رأينا في بعض التراجم جملةً يُقصد منها مدح الخليفة العباسي بدغدغة كبريائه ، فيقولون عن أُسرة ما « هي قريش القبيلة الفلانية ».[8] اما شعراء الامويين الذين

١) ابن قتيبة : المعارف ٢٥ ، ٢٨ ؛ ابن دريد : ك . م . ١٥٦ ، ١٧٣

٢) من مثل قولهم في *Chroniken*, II. 142 : « تحوّل البيت بني الشرف والرياسة . . . » ويلاحظ المؤلّف ان الشرح بعد لفظة « بني » من قلم شارح متأخر ، وذلك يخالف معنى الترجمة السابقة الهد . وهذا قوله : « وذلك يخالف المعنى المقصود بهذه الترجمة والله اعلم بالصواب . »

٣) من مثل العقد وأسد الغابة وما شاجهما ٤) قابل بما في *Chroniken*, II, 139-142

٥) وقد رأينا بدل « البيت » كلمة « حُجرة » في نقائض جرير والفرزدق ١٣٠ : « والحُجرة يومئذٍ لبني عاصم . » والحال ان « الحُجرة » تعادل « القُبّة » . راجع شيخو : شعراء النصرانية ٦٨٠

٦) البكري : المعجم ٢٩ ، ٣٠ ؛ اليعقوبي : تاريخه ١ : ٢٥٦-٢٥٧ ، ٢٦٠-٢٦١ ؛ وكان يتجنّب كلمة « البيت » ؛ ابن قتيبة : المعارف ٢٧ ، ٢١ ، ٢٢ . على انه في ٢٨ يذكر « البيت والشرف » وفي ٢٢ : « العدد والبيت » . قابل بما في العقد ٣ : ٤٤ : « بيت فزارة ومركزه بنو بدر » وفي ٥٢ : « فيهم كان بيت رياسة . » : *Chroniken, loc. sit.*

٧) *Chroniken*, II. 142 ٨) ابن قتيبة : المعارف ، ٢٢

ظلّوا على اتصال بالعقلية البدوية القديمة ، فكانت ثقافتهم جاهلية محضة ، فاننا نرى في شعرهم الجمع بين الفكرتين . وهذا جميل يدّعي لقبيلته « بالبيت والعدد »[1] . وهذا الأقيشر يقول :

وبنو دودان حيّ سادة حلّ بيت المجد فيهم والعَدَدْ[2]

وقد يكون هذا الجمع في قول الأقيشر طبيعياً متأثرًا بتطوّر الأفكار ، او مقصودًا لغاية ما ، وهي الأرجح في نظرنا .

ولا تطول المدة حتى يتناسى المؤرّخون وجمّاع التراجم كلمة « البيت » فيستعيضون عنها باحدى المفردات التي عددناها . وهو نصيب الكثير من الكلمات الجاهلية التي حوّلها مؤرّخو العصور التالية عن معناها الاصلي ، وفقًا لنزعاتهم الدينية[3] والسياسية التي عجلت في سير هذا التطوّر اللغوي . وكان القرآن قد بدأ عهد احتقار الاعجاد القديمة : « ظنّ الجاهلية » ، و « حميّة الجاهلية » ، وكل ما ينتج من « حكم الجاهلية »[4] ذاك العهد البائد المتصف بالجهل والهمجية ، الجدير بان يخلّفه النسيان والاهمال . فكان ضرورياً من ثمّ ان تُجتنب هذه الذكريات المشبوهة ، فلا تُذكر « بيوت » الشرك ، ولا ينسب السادة الى جدودهم من كبار الكهّان ،[5] في تلك البيئة الجديدة التي كان ساداتها يتنافسون بالقاب العَقَبي ، والبَدْري ، والأُحدي ، والشجري ،[6] والانصاري ، والتي

---

١) الاغاني ٧ : ٩٩

٢) الاغاني ١٠ : ٨٥ . وراجع ، بشأن بني دُودان ، ابن دريد : ك . م . ١١٠ ؛ اسد الغابة ٢ : ١٣٨

٣) من ذلك ان كلمة « البيت » كانت تُذكّر بالشرك الجاهلي ، او بالكعبة فيها . وفي كلا الأمرين لا توافق النزعات الجديدة .

٤) القرآن ٣ [آل عمران] ١٤٨ ، ٥ [المائدة] ٥٥ ، ٣٣ [الاحزاب] ٣٣ ، ٤٨ [الفتح] ٢٦ ؛ ابن هشام : السيرة ٨٢١

٥) هناك ذكر لكاهن صحابي (ابن دريد ٢٧٩) على ان اسد الغابة يقول : قد يكون اسمه « ابن الكاهن » !

٦) نسبة الى الاشتراك بمعارك العقبة ، وبدر ، وأُحد ، وبصلح شجرة الحديبية . وقد انتهى جمع الامر الى ان عدّوا ثلاث معارك في العقبة ؛ اسد الغابة ٤ : ١٥٨

كان الانتساب فيها الى ابي بكر وعمر والمُبشَّرة[1] يفوق بما لا يقاس ذاك الانتساب القديم الى اشهر السادة واعظم الارباب في الجاهلية.[2]

هذه العقلية الآخذة بالآراء المعاكسة للجاهلية وما اليها عملت العمل الناجع في نشر التفاسير والشروح الموافقة للحالة الجديدة. فكان من ذلك ان التطوّر اللغوي لم يسر السير الطبيعي، فانتقل سريعاً معنى «البيت» من الحجر المؤلّه الى الاسرة الارستوقراطية في البادية[3]، واذا لدينا الفصول المتعة في اسر العرب القديمة او، كما في لغة ارباب المجاميع، «بيوتات فاخرة متقدّمة»[4] وكانت هذه التعابير، في اصلها، تشير الى ان القبائل المذكورة او الأسر كان من حقّها وحدها المحافظة على «البيت» او خدمة «البيت» اي الحجر الموروث في القبيلة وهو معنى القول: «فيهم كان بيت عُذرة بن سعد»[5]. وقد رأينا، في ما تقدّم تلك الموافقة بين «الرب» و«القبّة» وما كان من صلة بين اللفظتين حتى انه كان لكل «رب» «قبة»[6]. وها اننا نتحقّق صلة مماثلة بين «ربّ» و«بيت». وهكذا فان الأسر التي «فيها» او «اليها» البيت هي الأسر نفسها التي كان منها في الجاهلية، «ارباب» ذوو قباب[7] ومن السذاجة بمكان ان ننسب هذه الصلات المترافقة الى الصدفة.

---

١) هم العشرة من الصحابة الذين «بشّرهم» النبي بالجنّة، اي ضمنها لهم.

٢) لام احدهم خالد القسري على انتسابه الى احد الكهّان فصاح به: «تبّرني بشرّي»، الطبري: تاريخه ٢: ١٨١٣.

٣) اطلب ملاحظة الغامي في *Croniken*, II, 142 بشأن اللبس في استعمال البيت = الحجر المؤلّه، والبيت = الشرف والنبل.

٤) راجع العقد ٢: ٤٤؛ الاغاني ١٦: ٢، ١٧: ١٠٥-١٠٦؛ *Bercean*, I, 326

٥) البكري: المعجم ٢٠

٦) فهو «ذو القبة» كما يقول النابغة (شعراء النصرانية ٦٥١) او «صاحب القبة» الاغاني ٢٠: ١٢٦

٧) راجع الجاحظ: الحيوان ١: ١٦٠. كان «البيت» في بني بدر، فكان حُذيفة، رئيس هذه الأسرة، يدعى «ربّ» معدّ (ابن قتيبة: المعارف ١٦٨، وغيره من الامثلة في ص ٣٨) وقد تتحوّل «القبة» الى خباء يلجأ اليه ويُلاذ به، ابن دريد: الاشتقاق ٢١٥. على ان هذا التحوّل يفرض الصفة الدينية.

ولنتقدّم الى ذكر تعابير تزيد في اظهار الصفة الدينية في هـذه المؤسسة . ان كثيرًا من هؤلاء الاشخاص رؤساء الأسر ، ذوي القباب الحُمر ، الساهرين على « البيت » يتصفون بصفات اكليريكية اذ يحقّ لهم ان يتسمّوا باسم « الكاهن » او « الحازر » او « السادن » او « الحاجب »[1] ، وبعضهم باسم « الحَكَم »[2] . ولا يخفى ان اكثر « الحكّام » في الجاهلية كانوا في الوقت نفسه من « الكهّان »[3] ، وهؤلاء اشهرهم : شِقّ ، وسطيح ، وقُس بن ساعدة جمعوا بين الصفتين[4] . ومن حقّ هؤلاء ان يحكموا في الشؤون الخطيرة فيصدروا القرارات الحاسمة . فتنتقل القبيلة من مكانها ، متحوّلة الى منزل آخر[5] . وهو معنى القول في افخم ما يقال عن احد هؤلاء . الكهّان او الحكّام دلالة على احترام قومه : « كانوا يصدرون عن رأيه » او « كانت مذحج في امره تتقدّم وتتأخر »[6] . ولا يخفى ان هذه الحركات كانت مقرونة بالحفلات الدينية ، ولا يأتيها القوم الا عن رأي العرّافين والزاجرين . ولا يدلي هؤلاء برأيهم الّا بعد ان يسألوا « البيت » الموكولة اليهم سدانته[7] ، ويجيلوا القداح ، ويؤوّلوا مظاهر الزجر[8] . وقد

١) « الحاجب » مرادف « السادن » ؛ راجع ابن دريد : ك . م . ٢٨٣

٢) « الحاكم » ؛ ابن قتيبة : المعارف ٢٧ ؛ وقابل بما في المفضّل : ك . م . ١٨١ : « شيخنا وصاحب ديننا » ؛ الاغاني ١٢ : ١٦ : « سيّد وحاكم »

٣) هم « حكّام اهل الجاهلية » ؛ اليعقوبي : تاريخه ١ : ٢٨٨ ؛ ابن هشام : السيرة ٢٦٠ ؛ البحتري : الحماسة الرقم ٤٤١ يظهر انه يميّز بين « الكاهن » و« الحازي » ؛ ابن الاثير : النهاية ١ : ٣٢٤-٣٢٥

٤) ابن هشام : السيرة ٢٦٠ ؛ الاغاني ١٦ : ٤١ ؛ ابن دريد : ك . م . ٢٨٦ ، ٣٠٢ . « سطيح كاهن العرب » ، اليعقوبي : تاريخه ١ : ٢٨٨

٥) الاغاني ١١ : ٤٤ ؛ *Berceau*, I, 267 . وهي الانتقالات التي تضطرّ اليها القبيلة على اثر الازمات الداخلية او الطبيعية كالجدب والنزو وما اشبه .

٦) ابن دريد : ك . م . ٣٢٩ ؛ ابن الاثير : النهاية ٤ : ٤٠ وفيها ان « المرّاف » يرادف « الكاهن »

٧) ان اصحاب « البيت » والعدد والشرف هم ايضًا من « سدَنَة » « وخزَنَة » الكعبة . اطلب *Chroniken*, II, 138, 139 *etc.*

٨) قابل بقول كاهن أسدي لقومه : « لا تعجلوا . . . حتى أزجر لكم » ؛ الاغاني ٨ : ٦٧ . والكاهن سجّاع ، الجاحظ : الرسائل ، ١٢

لا تختلف اقوالهم ، عندما ينادون القبة - المظلة المرفوعة على ظهر الجمل ، عن التعابير المدوّنة في سفر العدد : (١٠ : ٣٥) :

« قم ، يارب ، فتبدّد اعداؤك ويهرب مبغضوك من امامك . »

وكذلك القول عن صلاة « الاستسقاء » ، وعن الميزة او الكرامة التي اختص بها بعضهم في استنزال المطر ، زمن الجدب . وهي ميزة يبرّرها عادة كون صاحبها يحفظ « بيت » القبيلة « وقبّتها » ، وللبيت والقبة مركزهما الأسمى في هذه الأدعية الحافلة[٢] . وكأن الخلفاء ، بصفتهم ورثة « ارباب » البادية العربية ، ورثوا كذلك هذه الميزة في الاستسقاء ؛ كما تشهد لغة الشعر في القرن الاول للهجرة .[٣] وان يكن فات عالماً من امثال نولدكه ، الانتباه لهذه النتيجة ، فلأنه أهمل العامل التاريخي الجاهلي . ونزيد ان هذه الميزة ، او الكرامة ، يختصون بها بصفتهم سادة الناس ، وخلفاء الله ، كما يقول الفرزدق[٤] . ولا نزانا مبالغين اذا ظننّا الأصل نفسه لميزة اخرى يوليها العرب سادتهم او ملوكهم ، بل افراد بعض الأسر الشهيرة ، المحافظة على « القبة » ، وهي ان دَمهم يشفي من الكلب[٥] . وذلك لان آباءهم اتصفوا بحدة الكهانة . وقد اتسعت هذه الميزة حتى استفاد منها كهنة النصارى ورهبانهم في البادية ، فغدوا اطباء العرب ومعالجيهم .

كل هذه الاسباب تبرّر وتشرح وجود القبة الحمراء في معسكر معاوية وخلفائه الأقربين ، ورثة كرامات السادة في الجاهلية . ولم يتجاوز معاوية ان

---

١) قابل بما في المزامير ٦٧ : ٦٨ ؛ ١٣١ : ٨ .

٢) انظر ، في ما خصّ مظلة مختار ، ابن دريد : ك . م . ٢٩١

٣) اطلب ابحاثنا في *Chantre*, 70 ؛ *Poète royal*, 17, *n.* 1 وقد تتّسع هذه الميزة فتشمل الامويين جميعهم ، الاخطل : ديوانه (طبعة صالحاني) ٥٦ ؛ الفرزدق : ديوانه (Boucher) ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢٧ ، ١٧٤ ؛ *Chronik*, II, 6, 302 وفي الاغاني ذكر لصلاة استسقاء يرئسها اياد القبائل ، الاغاني ٢١ : ٢٦ ، ١٨ ، ١٧ : ٧٩ . اما نولدكه (*ZDMG*, 1898, 25) فلا يرى فيها الا صورة شعرية لقدرة الخليفة غير المحدودة . راجع في الكندي (طبعة Guest) ص ٨٢ ، كلاماً عن ولاة الامويين والاستسقاء .

٤) الاغاني ١٦ : ٨٦ .

٥) اطلب الامثلة الكثيرة في الجاحظ : الحيوان ٢ : ٣–٤ ؛ ابن دريد : ك . م . ١٣٨

تابع عمل ابي سفيان ، وقد نام في أحد الى جنب القبة المضروبة على إلاهتي قريش . ولسنا لنغفل عن اهتمام الخليفة الكبير بالمظاهرات الخارجية[1] .

وكثيراً ما جمع السيد بين صفتي « الرب » « والكاهن » ، كما فعل زهير ابن جذيمة « رب » بني عبس ، بل اننا نعرف له « ربيئة » او تابعة من الجن ،[2] وهي من ميزات العرّافين .[3] وكذلك القول عن سادن « كان له قدر » في بني ضبّة .[4] وفي نجران كانت سدانة الكعبة لآل عبد المدان ، « بيت » قومهم .[5] وهكذا نرى ان فكرة الشرف ، وكرامة « البيت » تظلّ عالقة بصفة المحافظة على معبد ، كما حصل لبني عبد المدان حتى بعد اهتدائهم الى النصرانية . هذا زهير بن جَناب ، جدّ اشهر الأُسر الشريفة في بني كلب[6] ، وسيدهم المطاع وقائدهم الاعلى ، كان في الوقت نفسه كاهنا وحازراً .[7] وهذا مطعم بن عدي ، صاحب المقام الرفيع في شرفاء قريش[8] ، نعرف ، بواسطة حسّان[9] ، انه كان يجمع بين الصفات الاجتماعية والدينية فكان « عظيم المشعرين ورئيسها » . وهذا كليب

---

١) راجع كتابنا *Mo'âwia*

٢) الاغاني ١٠ : ١٢ ، ١٣ ، ١٥

٣) ابن سعد : الطبقات ١ : ١١٠ ، ١٢٦ وهو يذكر كاهنة انثى : السيرة الحلبية ١ : ٢٩ وقد يطلق على هذا الجني الأليف اسم « الرَئِيّ » و « الصاحب » ، الاغاني ٣ : ١٨٨ ، ١٨٩ ؛ ١٣ : ٣٠ ؛ و « الآطي » وهو المكلّف تفسير الاحلام المُنبئة بالشيء ، الاغاني ٩ : ١٨٣ . قابل بما في ابن الاثير : النهاية ١ : ١٠٩ ؛ ٢ : ٥٥ ؛ اسد الغابة ٢ : ١٣٦ ، ٤ : ١٣٣ ؛ السمهودي : الوفاء ١ : ١٣٣ ؛ ابن هشام : السيرة ١٣٢ ، ١٨٦ ، ١٨٨

٤) ابن دريد ك . م . ١١٩

٥) ابن دريد ك . م . ٢٢٧

٦) ابن دريد ك . م . ٢١٦

٧) راجع *Berceau*, I, 204, 267 . « الحازر » جمع « حَزارة » نوع من العرّافين يقرب من « القائف » ، الاغاني ١٠ : ٢٨

٨) ابن دريد : ك . م . ٥٤٠

٩) ديوانه ٨٨ : ٢ . ولنا في بعض النصوص تصريح باسم الاله الذي يحفظونه او يستدون له هو مثل وَدّ ، ويغوث ، ابن دريد ك . م . ٢٢٧ ؛ البكري : المعجم ٢٤ . ويصرّح بصفة « الكاهن » عند ذكر بعض السادة ، البكري ٢٤ . ويذكر ابن هشام : السيرة ٢٧٥ ، ان حُلَيْلاً ، جد قُصيّ ، كان سيد مكة وسادن الكعبة .

اخو المهلهل، كان « رب » وائل . فكانت بكر وتغلب لا تصدران ولا تنتقلان الّا عن رأيه . وهو ما رأيناه في حديث زهير بن جَنـاب والأفوه الأودي.[1] حتى امكننا القول ان هنـاك كثيرًا من السادة شاركوا زهيرًا وكليباً والأفوه بهذه الميزة العالقة بالصفة الدينية . والى هذه الصفة الدينية[2] ترتقي الأمجاد التي افتخر بها احفادهم ، فدوّنها النسّابة بقولهم : « هم اول بيت في قضاعة »[3] ، او « هم بيت قيس » او « بيت بني الديّان.»[4]

ومن هنا نفهم موقف زهير بن جناب من بني غطفان . وكان هؤلاء تحت سيطرة الكلبيين مدة طويلة حتى شاؤوا الاستقـلال فقاموا بثورة عامّة . فاراد زهير ، سيد الكلبيّـين ، ان يعاقبهم ويقتصّ منهم . وكان اول اعماله انه امر بهدم حَرَمهم وانتهاكه ، والحَرَم المذكور دلالة استقلالهم[5] . ولا يخفى ان الحرم يفرض وجود « البيت » . وهكذا فان الميزة الدينية الأصـل اصبحت مقرونةً بَل متوحّدة بفكرة المجد الوطني والاستقلال السياسي . أوَلا ترى الظاهرة نفسها في الكنائس الشرقية التي كان يتقدم استقلالُها الدينيُّ استقلالَها السياسي وكثيرًا ما كان يعدّه ويعمل في سبيله.[6] وهذا تاريخ البلقان كفيل باقرار هذا القول !

---

١) شيخو : شعراء النصرانية ٧٠، ١٦٦ . الاغاني ٤ : ١٥١ . ويفرض اجتماع السيادة والسدانة ، الجاحظ : الرسائل ٧٥

٢) البكري : ك. م. ٣٤ ؛ ابن دريد : ك. م. ٢٧٩ : كاهن-سيّد

٣) البكري : ك. م. ٣٤ ، ٥٤ ؛ الاغاني ١٩ : ٥٢ . جرير بن عبدالله « رب مروان » ، الاغاني ١٨ : ٢١٤ ، وهل يكون مروان اسم « بيت » او حجر مؤلّه ؟

٤) الاغاني ١٧ : ١٠٥

٥) الاغاني ٢١ : ١٤ . ولا شك في ان هـذه الحكاية ، الرامية الى اقرار سيادة كلب على القبيلين، متأخرة عن زمن المعارك المتتابعة بين الحزبين على عهد الامويين . وقد يكون فيها الكثير من مبالغات الحزب السوري-الاموي ولاسيّما في الحوادث البطلية المنسوبة الى زهير . راجع بحثنا : *L'avènement des Marwanides et le califat de Marwan I*, *MUSJ*, XII, *fasc.* 2, pp. 21...

٦) كما جرى للشعب البلغاري .